"من وحي القبور"[67]

تمتاز جزيرة البحرين باحتوائها على أكبر مقبرة تاريخية في العالم بأسره، واختلف المؤرخون حول تعداد هذه الآكام المنتشرة في مساحات واسعة من وسط الجزيرة وشمالها الغربي، والتي يعود تاريخ أقدمها إلى ما يزيد عن أربعة آلاف وثلاثمائة سنة خلت؛ فقد ذكرت دائرة المعارف الإسلامية بأن عددها يصل مائة ألف أكمة،[68] واتفق عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك الحمر مع هذا التقدير،[69] في حين أشار جان إيف برويل إلى أن عدد مقابر التلال في البحرين في نهاية القرن التاسع عشر كان يقدر بحوالي 170.000 قبراً، ولكنها تقلصت في العقود الثلاثة الماضية بسبب الحركة العمرانية.[70]

تتكون الأكمة الجنائزية من تل على سطح الأرض يحتوي على أجزاء من الصخور الجيرية بارتفاع يتراوح ما بين متر إلى أربعة أمتار يحيط به جدار مستدير، ويغطي التل الرملي بأكمله غرفة دفن مركزية مستطيلة الشكل، بنيت من قوالب خشنة من الصخور الجيرية عادة ما تكون على مستوى الأرض. ويشير المنقبون إلى أن هذه المقابر كانت في الأصل مبان أسطوانية ذات قمة مسطحة أو مقببة قليلاً، وقد أخذ التل شكله إثر سقوط الجدار المحيط واختفائه تدريجياً مع هبوط الأثر. وتحتوي غرف الدفن على توابيت كان بعضها يطلى بالقار لحمايته من رطوبة الأرض، بالإضافة إلى وجود كميات من المجوهرات والأسلحة والطعام والأواني الفخارية وغيرها من الأدوات.

ويمكن إحالة القارئ إلى تراث ضخم من المصنفات التاريخية التي قامت بوصف هذه المقابر، وما تحتويه من آثار ولقى، فقد حظيت ظاهرة مقابر التلال باهتمام المنقبين والمؤرخين المحدثين منذ أكثر من قرن من الزمان، ووفدت بعثات بريطانية وفرنسية ودنماركية وأسترالية وعربية لدراسة هذه المقابر، وخرجت هذه البعثات بعدد كبير من

---

[67] نشر هذا المقال في: **صحيفة الوطن**، السنة 4، العدد 1199، 23 مارس 2009، البحرين. ص 17.

[68] بريل (1998) **دائرة المعارف الإسلامية**، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة. 6/1599.

[69] عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك يوسف الحمر (1982) **البحرين عبر التاريخ**، الشركة العربية للوكالات والتوزيع، البحرين. 1/24.

[70] محمد الخزاعي (2002) **بقايا الفردوس آثار البحرين 2500 ق.م- 300م**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص.ص 31-32.

الكتب والمقالات والتقارير والدراسات التفصيلية التي تناولت ظاهرة مقابر التلال من محاور مختلفة.

إلا أن المحصلة النهائية لهذه الجهود الكبيرة هي ما انتهى إليه المنقب الدنماركي ب. غلوب بقوله: "إن أصل هذا العدد الهائل من القبور يبقى لغزاً محيراً لأبناء البحرين والزائرين بل وللمنقبين الآثاريين أنفسهم".[71]

وأيده في ذلك الكاتب عبد الرحمن مسامح بقوله: "لا يزال الوقت مبكراً للحديث عن أمور شتى في المجتمع الدلموني وأنظمته وقوانينه بسبب ندرة المكتوب من الوثائق".[72]

والحقيقة هي أن الأسرار الدفينة تحت آكام الرمل والحصى، لهي أكثر أهمية من اللقى التي حاول أصحابها أن ينقلوا إلينا من خلالها رسائل لا تزال جهود المنقبين ودراسات المؤرخين قاصرة دون فك أبسط رموزها.

ولا تزال الأسئلة الحائرة تراوح مكانها دون أن تجد من يمكنه الإجابة عليها بصورة قاطعة:

- ما هو سر وجود أكبر مقبرة في العالم على أرض جزيرة البحرين؟
- كيف حافظت هذه القبور على حالتها لأكثر من أربعة آلاف وثلاثمائة سنة؟
- لماذا توجد مقابر مفصولة للبالغين وللأطفال، وأخرى للذكور والإناث؟
- ماذا يعني وجود مقابر لعوائل تمتد عبر عدة أجيال متتابعة؟
- ما هو السر في تصميم هذه المقابر على شكل أسطواني، وبأحجام مختلفة يصل ارتفاع بعضها إلى 12 متراً، ويبلغ قطر قاعدتها ستون متراً؟

ربما يتعين علينا الوقوف على هذه الآكام المهيبة بسكونها للخروج من بوتقة الدراسات الوصفية والكتب المترجمة إلى عمق الفلسفة التاريخية لنتسائل:

ماذا يمكن أن تجيبنا لو تحدثت القبور؟

وما هي الحقائق التي يمكن استخلاصها من وحي هذه الآكام لفهم حاضر البحرين واستشراف مستقبلها؟

---

[71] غلوب، ب. ف (2003) **البحرين: البعثات الدنماركية في دلمون القديمة**، ترجمة محمد البدر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص 16.

[72] عبد الرحمن سعود مسامح (1998) **مقدمة في تاريخ البحرين القديم**، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر، البحرين. ص106.

- إن صمت هذه القبور يقول لنا بأن الإبداع يكمن في البساطة وليس في التعقيد، فآكام الرمل والحصى المحلية تعيش أربعة آلاف سنة في حين لا يتجاوز معدل عمر العقار التقليدي المعاصر في البحرين 35 عاماً. ولا غرابة في ذلك؛ فآكام الرمل التي تحتضن أكثر من ربع مليون جثة دون أن تفرط في أي منها قد بنيت من منتج محلي يحمل في طياته جميع العوامل التي تقاوم: الحرارة، والرطوبة، والرياح، والأمطار، وغيرها من عوامل التعرية التي لا يصمد أمامها الحديد والاسمنت والطابوق الأجنبي مهما سمت مواصفاته لأكثر من ثلاثة أو أربعة عقود.

لقد نسينا في أتون جشع الاستهلاك، وغمرة حركة الاستيراد، بأن البيئة المحلية تمنح منتجاتها (الزراعية والصناعية وموادها الخام) ميزة الصمود أمام عواديها، في حين لا تتمتع البضائع المستوردة بمثل هذه الميزات. ولذلك فإن بيوت البحرين المعاصرة قد شيدت من مواد مستوردة لا تتمتع بمميزات: العزل الحراري، والتهوية الطبيعية، والأساسات المتينة، مما جعلها قصيرة العمر، سريعة التآكل، كثيرة التلف، ولا يمكن السكن فيها دون الاعتماد المفرط على الطاقة لتوفير الحد الأدنى من مقومات الحياة، وإنه لمن المؤسف أنه كلما تطورت علوم الهندسة والعمران كلما نقص عمر العقار في البحرين.

لقد كان أجدادنا في العصور الغابرة يشيدون الحصون والقصور والبيوت التي تعيش لمئات السنين، أما مبانينا المعاصرة فلا تدوم عشر هذه المدة.

- ولو تحدثت القبور لذكرتنا بأن معالم حضارة دلمون القديمة بأكملها تتلخص في غرفة واحدة من غرف الدفن: فهي تحتوي على بقايا ثمار محلية، ومنتجات تمت صناعتها بإتقان في البحرين، وعملات محلية تعكس رسوخ الاقتصاد وحركة التبادل السلعي، وهي بذلك تدلنا على أقصر طريق للتحضر، ذلك الطريق الذي يمر عبر العودة إلى تنمية قطاع الزراعة، وتشجيع الصناعة المحلية، واستعادة الدور الرائد للبحرين في حركة الوساطة التجارية على الصعيد الإقليمي بدلاً من التوغل في نظام العولمة الذي طمس معالم الهوية الوطنية، وقضى على حركة الإنتاج المحلي لصالح الشركات العملاقة الغربية التي لا تعترف بأية حدود.

- وتقول لنا المقابر بأن تعدد أنماط بنائها، واختلاف هويات سكانها، وتباين معتقداتهم وأديانهم، بالإضافة إلى تنوع مهنهم، وتدرج مستوياتهم الاجتماعية، تعكس جميعها حقيقة هامة من حقائق الاستقرار الاجتماعي والبناء الحضاري الذي قامت عليه البحرين، والذي يتمثل في: التعددية والتسامح الديني والثقافي، فلو تحدثت القبور إلينا

لصرخت بأعلى صوتها توبخ العصبويات الطارئة على سلوك منظريها في اتباع نهج التعصب والتشرذم ومحاولة إلغاء المخالف، واللجوء إلى إتلاف خيرات الوطن من خلال الحرق المتعمد والتخريب المنهجي.

- ولو تحدثت القبور لربما قالت لنا بأن أرض البحرين كانت ولا تزال تملك جميع المقومات لتشييد صرح حضاري ذائع الصيت وواسع النفوذ، ولأبدت دهشتها من أن جميع ما تركه الأقدمون فيها، قد اختزلناه في فكرنا التاريخي المعاصر باعتقادنا أن البحرين لم تكن سوى جزيرة جرداء استخدمها سكان الأقاليم المجاورة لدفن موتاهم!

لكن القبور لا تتحدث... بل تتحدانا بصمتها أن نخرج من صمتنا، وأن نسعى لاكتشاف أسرار وعبر كثيرة لا تزال مدفونة تحت آكامها. ولعل السر الأكبر الذي نجحت هذه المقابر في لفت أنظارنا إليه هو: عبقرية أهل تلك الفترة في استخراج أسرار الحياة من ردهات الموت.

وقف الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي وقفة تأمل أمام أحد القبور، ثم علق قائلاً: "القبر كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حي في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي".[73]

[73] مصطفى صادق الرافعي (2003) **وحي القلم**، دار ابن كثير، دمشق. 2/534.